تصدير

يطيب لى وأنا أقدم هذه الدراسة المتواضعة عن نظرية العلم الأرسطية للقارئ أن أصارحه ببعض خاطرات عنت لى قبل أن أتوجه لدراسة أرسطو وأثناء تلك الدراسة. فقد كان من الضرورى أن أختار موضوعا لرسالتى للدكتوراه فى مجال الفلسفة اليونانية بعد أن انتهيت من دراسة كانت موضوعا لرسالتى للماجستير بعنوان « الألوهية عند أفلاطون » . والدارس لأفلاطون لا يستطيع الخروج من عباءته العريضة بسهولة . ولذلك كانت حيرتى شديدة ، ولكنى خرجت من هذه الحيرة ؛ فليس أجدر بالدراسة بعد أفلاطون أكثر من أرسطو تلميذه الأعظم . ولذلك كان أول ما فكرت فيه من موضوعات موضوعا عن موقف أرسطو النقدى من الفلسفة الأفلاطونية ، وكان الهدف من ذلك آنئذ هو البرهنة على قضية كنت أتصور أنها صحيحة وهى أن أرسطو كان أفلاطون يتخفى وراء ستار الادعاء بأنه إنما يبدأ من الواقع نظرا لأنه يرفض أن يكون المثال أو الماهية مفارقة للعالم المحسوس . وكنت أتصور أن هذه البداية التى يشتم منها رائحة الواقعية والبدء بما هو محسوس سرعان ما ينساها أرسطو ليعود أفلاطونيا أى يعود للمثالية الأفلاطونية من جديد ؛ فهكذا فعل فى ميتافيزيقاه حينما بدأ من تعريف الجوهر تعريفا ينطبق على الأفراد الجزئية بأنه ما لا يحمل على شيء سواه ولا يحل فى شيء ؛ ثم رأى أن الجوهر منه الجزئى (أى الفردى) ومنه الكلى ؛ كما رأى أن المادة تعد جوهرا وإن كان غير كامل .. وسرعان ما أكد بعد ذلك أن الجوهر الكلى هو الأفضل وأن الصورة – وليست المادة – هى الأهم وهى مبدأ الأشياء ومبدأ العلم وهى تتسلسل إلى أن تنتهى إلى صورة الصور أى الإله .. أى أنه بدأ من تحليل للجواهر فى العالم المحسوس وانتهى من ذلك إلى تأكيد الوجود الإلهى المفارق الذى لا علاقة له بالعالم .

وهكذا فعل فى فلسفته الأخلاقية حينما بدأ يحلل معنى الفضيلة بدءًا من معانيها الشائعة عند الناس أى من معناها الواقعى إلى أن قدم نظريته فى الفضيلة الأخلاقية وهى نظرية الوسط ، وسرعان ما رأى أن هذه الفضائل الأخلاقية ليست هى « الفضيلة » بألف ولام التعريف ، بل لابد أن نميز بينها وبين ما أسماه بالفضيلة النظرية أى فضيلة التأمل النظرى ؛

وبين مدى سمو هذه الفضيلة لارتباطها بتحقيق أقصى قدر للسعادة الإنسانية وذلك لسمو موضوعها وتشبه الإنسان فيها بالإله ، كما أنها تحقق استقلال الإنسان وعدم حاجته للمجتمع والناس . وبلغ فى هذا التقدير للتأمل النظرى مبلغا خطيرا فكان أكثر تطرفا من أفلاطون الذى كان يرى أن الخير الأقصى للإنسان هو المزج بين حياة التأمل وحياة اللذة على أن يغلب الإنسان اللذة العقلية (لذة التأمل) على اللذة الحسية .

وكذلك كان موقف أرسطو فى فلسفته السياسية ؛ حيث أخذ يؤكد فى البداية على أن فيلسوف السياسة يهتم فى المقام الأول بأن يقدم للمشرع ما يعاونه على تقديم تشريعات يراعى فيها الواقع السياسى . وعاب على أفلاطون إفراطه فى الخيال ورفض رأيه فى المدينة المثالية التى يحكمها الفيلسوف وتسود طبقة الحراس فيها شيوعية النساء والملكية محتجا بأن هذا يجافى الواقع ويخالف غريزة التملك عند الإنسان ويجلب الصراع بين النساء والرجال حول الأبناء بعكس ما تصور أفلاطون الذى كان يرى – فى الجمهورية – أن تطبيق الشيوعية بين طبقة الحراس من حكام وجند سيزيل أسباب الصراع فيما بينهم ويحافظ على وحدة الدولة . وبناء على تلك الانتقادات التى وجهها أرسطو للسياسة الأفلاطونية ، قدم العديد من النظريات الجديدة على أفلاطون مثل نظريته فى ضرورة الفصل بين سلطات الدولة ، ونظريته فى الربط بين الاقتصاد والسياسة بتحليل أوجه الكسب والتمييز فيها بين المشروع وغير المشروع وكذلك نظريته فى تحليل أسباب الثورات وكيفية معالجة هذه الظاهرة ... الخ . ولكن رغم كل ذلك يعود أرسطو ليقدم نظرية فى المدينة المثالية مغرقا فى فرض الشروط المتعذر تحققها ؛ فقد كانت تلك الشروط أكثر خيالية ومثالية من المواصفات التى حددها أفلاطون لمدينته المثالية ، وعلى الرغم من أن أرسطو عاش عصر تحقق الامبراطورية المقدونية التى جعلها تلميذه الاسكندر الأكبر واسعة الامتداد فشملت معظم بلاد الشرق إلى جانب بلاد اليونان ، إلا أنه ظل مقتنعا برأى سابقه فى أن الدولة المثالية هى دولة المدينة .

وهكذا كان أرسطو يبدأ دائما فى دراسة أى موضوع بتحديد نقاط الاختلاف بينه وبين أفلاطون ثم يعود ليؤكد بحجج جديدة آراء أستاذه . ولقد كنت أتصور أن هذا هو أرسطو فعلا ؛ فقد كان فى رأيى آنذاك مجرد تلميذ يردد آراء الأستاذ بأساليب أخرى وبحجج جديدة . ولم أكن أدرك مدى عبقرية أرسطو التى أقر بها أنصاره

وكثير من نقاده على السواء ، وجعلت منه هذا الطود الشامخ الذى اصطبغ العصر الوسيط بصبغته وكان فلاسفة هذا العصر سدنة لأرسطو وحراسا لمذهبه . وكنت أعجب وأقدر براعة فلاسفة العصر الحديث منذ فرنسيس بيكون ورينيه ديكارت الذين حملوا لواء مناهضة هذا المذهب (الجامد) والدفع بآراء ومناهج جديدة تساير نهضة العصر وتؤكد ضرورة التقدم عن طريق كشف الجديد والسيطرة على الطبيعة بالعلم وتسخيرها لخدمة الإنسان .

ولكن لا أخفى عليك عزيزى القارئ أن هذه الآراء بدأت تتبخر شيئا فشيئا بعد ما بدأت أقرأ بعناية مؤلفات أرسطو المنطقية والعلمية ؛ فقد بدأ يتسرب إلىّ ذلك الشعور الجديد الذى يطالبنى بإعادة النظر فى آرائى السابقة ؛ فليس أرسطو هو أفلاطون متخفيا ، بل إنه فيلسوف من طراز يختلف عن الطراز الأفلاطونى ؛ فإن كان قد تأثر ببعض آراء أستاذه الجزئية فهو لم يتأثر بها كلية . وبدأ يتكشف لى أن إبداعه ليس فى نظريته عن الوجود وليس فى نظرياته الأخلاقية والسياسية بقدر ما كان إبداعه الحقيقى فى منطقه ، فى نظريته عن العلم ، أدواتها وتطبيقاتها . فأرسطو هو فيلسوف المنهج الجديد ، هو العالم الذى أسس مدرسة علمية لا يتوقف التلاميذ فيها عن المشاهدات وجمع الملاحظات عن النباتات والحيوانات وآفاق العالم وظواهره ، فكأنها خلية نحل يعرف كل فرد فيها اختصاصه وينفذه لتتجمع كل هذه الجهود عند الأستاذ الذى ينظم ويصنف كل ذلك ليؤسس هذا الكم الكبير من العلوم ، ثم يقدم فلسفته حول منطق العلم مميزا بين العلم واللاعلم ، محاولا قدر طاقته أن يلم بكل ما وصل إليه عصره من مكتشفات ويعبر عن كل ذلك فى منهجه وفلسفته العلمية . واستقر فى ظنى أن هذا هو الفارق الكبير بين أرسطو وأفلاطون ؛ فقد كان أفلاطون هاويا للفلسفة بينما كان تلميذه هو الفيلسوف المحترف ، والعالم المتخصص فى العلوم .

ولقد هالنى أن أجد ذلك الشبه الكبير بين منهج أرسطو فى الاستقراء وبين منهج من انتقدوه وثاروا عليه فى مطلع العصر الحديث ، كما هالنى ذلك الإطراء الشديد من علماء الحياة على أبحاث أرسطو عن الحيوان . وأخذت مظاهر الإعجاب والتعاطف مع أرسطو تتسع ، فلم أعد أقارن بينه وبين أفلاطون فقط لأكتشف ما بينهما من تمايز وأوضح ما لأرسطو من فضل ، بل بدأت أقرأ نصوص علماء وفلاسفة العصر الحديث

لأعرف إلى أى حد كانوا منصفين فى نقدهم له ولأكتشف مدى فضله عليهم . وتبين لى وأنا فى معرض تلك المقارنات أن هناك الكثير من سوء الفهم من هؤلاء لأرسطو وآرائه . فقد راح هؤلاء ينتقدونه باعتباره هو المسئول عن جمود الفكر والعلم نظرا لجمود منهجه ودوجماطيقية فلسفته ، وكانت انتقاداتهم فى الواقع تنصب على منهجه ممثلا فى القياس بصورته التقليدية التى شاعت عند المشائين من تلاميذ أرسطو فى العصر الوسيط . ووجدتنى أقف موقف الدفاع عن أرسطو لا إعجابا بآرائه ولا بمنهجه ، بل بدافع إنصافهما ولبيان سوء الفهم الذى صادفهما من شراحه وتلاميذه طوال العصور الوسطى ، ومن نقاده والرافضين لآرائه – فى صورتها التقليدية تلك – من فلاسفة العصر الحديث .

ورغم كل ما ستجده – عزيزى القارئ – من دفاع عن أرسطو وفلسفته ومنهجه ، فلا تعتقد للحظة أننى أطالب باعتناق هذه الفلسفة وذلك المنهج فى عصرنا الحالى ، فعصرنا ينفرد بمناهج جديدة وبفلسفات عظيمة – غير منهج أرسطو وفلسفته – كانت هى سبب كل ما تجده أمامك وبين يديك من مظاهر التقدم الحضارى والتكنولوجى فى كافة المجالات . وإن كان تاريخ الفلسفة موصول الحلقات ، فإن تاريخ العلم ليس كذلك لأن التطور فى العلوم لا يعتمد على التأثير والتأثر بقدر ما يعتمد على تلك الاكتشافات الجديدة التى يقوم بها العلماء مستخدمين فى ذلك المنهج العلمى الذى كان للفلاسفة المحدثين فضل التنبيه إليه وتحليل طرائقه .

ولا يعنى ذلك أن القارئ لأرسطو أو عنه يضيع وقته هباء ، بل على العكس ، فقراءة أرسطو تعنى الفهم والوعى بأساس الفكر الغربى بأكمله ؛ فأرسطو أحد قمم هذا الفكر وهو يتميز عن قممه الأخرى بأنه كان مع أستاذه أفلاطون يقتسمان فيما بينهما عالم الفلسفة ؛ فليس بين الفلاسفة بعدهما من يمكن أن يكون مستقلاً فى فكره عنهما ، كما أن أحدا لا يستطيع أن يدعى معرفته بتاريخ وتطور العلم بدون معرفة الخطوة الأولى ، ولا شك أن الخطوة الأساسية الأولى هى تلك التى خطاها أرسطو ؛ فقد كان هو المعبر بشكل تام وناضج عن المرحلة اليونانية من مراحل التطور العلمى للبشرية .

وعلى كل حال فقد كنت حريصا طوال هذه الدراسة على المقارنة الدائمة بين آراء أرسطو وآراء المحدثين ليتبين لنا مواضع الاتفاق ومواضع الاختلاف بينهم وبينه .

وقد قمت بدراسة نظرية العلم الأرسطية من وجهة نظر خاصة أرجو أن أكون قد وفقت فيها على أساس التمييز فيها بين جانبين ، الجانب النقدى الذى يبدأ بمحاولة تحديد مفهوم أرسطو للعلم ثم يتطرق من خلال ذلك إلى تقديم موقفه النقدى من الآراء الشائعة فى عصره عن العلم خاصة آراء السوفسطائيين وأفلاطون . أما الجانب الثانى فهو الجانب الإيجابى البنائى من النظرية الذى يتمثل – فى نظرنا – فى نظريات أربع له هن نظرياته فى التعريف ، والقياس ، والاستقراء ثم نظريته فى العلية (أو السببية) ، ودور كل منهن فى تأسيس العلوم وتطويرها .

وقد اتبعت فى دراستى هذه المنهج التحليلى المقارن ؛ فقد تناولت نصوص أرسطو نفسه بالتحليل من منظور عصرين ، عصر أرسطو وبيئته الفكرية والعلمية ، ومن منظور عصرنا ؛ إذ لا يمكن أن نقتصر على تناول أرسطو فى إطار بيئته اليونانية وشراحه المباشرين فقط ، إلا تجمدنا عند الصورة القديمة لأرسطو ولن يكون هناك فرق بين دراستنا له فى القرن العشرين وبين دارسيه وشراحه فى العصور القديمة والوسطى . إن أرسطو قد درس من قبل الاسكندر الأفروديسى وثامسطيوس قديما ، كما درس من قبل الفارابى وابن سينا وابن رشد وتوما الأكوينى فى العصر الوسيط ، فماذا سيكون الفرق بين دراستنا ودراساتهم !! . إنه فارق العصر ؛ فكل دارس لفيلسوف قديم إنما يجب أن تبدو فى دراسته له مظاهر عصره وأطر عصرنا هذا المنهجية والفلسفية . ومن هنا فقد آثرنا أن نتناول موضوعنا بالدراسة من منظور عصرنا بدون إخلال بظروف أرسطو وعصره ، ودون أن نقحم عليه ما ليس له أو دون أن نلوى عنق نصوصه لتتفق مع ما وصل إليه فلاسفتنا وعصرنا .

وبعد فأنا مدين للكثيرين الذين ساعدونى فى إتمام هذه الدراسة كما هى عليه الآن ، ومع توجهى بالشكر العميق لكل هؤلاء ، فإنى أجد لزاما علىَّ أن أخص بالذكر هنا أستاذتى الدكتورة أميرة حلمى مطر التى كان لها فضل توجيهى لدراسة هذا الموضوع ، كما أنى مدين لأستاذى وصديقى الدكتور محمد مهران رشوان بالكثير من التوجيهات القيمة التى ساعدتنى على إنجاز الأجزاء المنطقية فى هذه الدراسة وخاصة تلك التى حاولت فيها الإفادة من المنطق الرمزى الحديث فى فهم جوانب المنطق الأرسطى ، فما فى هذه الأجزاء من صواب ينسب له وما فيها من خطأ ينسب لى وحدى . كما أنى مدين لأخى وصديقى الدكتور محمد محمد مدين بالكثير من العون الصادق طوال إعداد هذه

الدراسة وحتى إتمامها على تلك الصورة التى هى عليها الآن ، والتى أرجو أن تكون ذات فائدة فى سد نقص شديد أراه فى الدراسات الأرسطية فى المكتبة العربية .

د . مصطفى النشار

الجيزة – الأهرام
ابريل ١٩٨٥م .